JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الخامس والثلاثون
٢٠٢٦م /١٤٤٧هـ
العدد الخامس والثلاثون
(٤٩٥) (٥٠٦)

رحلات الحج من إفريقيا الى مكة من خلال مشاهدات المستشرقين الأوروبيين (جون لويس بوركهات)

م. م. حمد ابراهيم حميد جاسم الجبوري
وزارة التربية /مديرية تربية كركوك
hemedeljboury123@gmail.com

المستخلص:

يتناول هذا البحث رحلة الحج من إفريقيا إلى مكة المكرمة من منظور المستشرق السويسري جون لويس بوركهارت، أحد أبرز الرحّالة الأوروبيين في مطلع القرن التاسع عشر، مسلطًا الضوء على الأبعاد الدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية لهذه الرحلة كما وثّقها في كتاباته، حيث يبدأ البحث بتعريف شامل بالحج وأهميته في الإسلام، باعتباره الركن الخامس من أركان الدين، ومظهرًا للوحدة والتساوي بين المسلمين، ومن ثم يتطرق إلى مفهوم الاستشراق وتعدد تعريفاته، وتباين الدوافع بين العلمية والأيديولوجية.

ركزت الدراسة على نشأة بوركهارت وسيرته الذاتية، مرورًا بانخراطه في "الجمعية الإفريقية" في لندن، وتخطيطه للرحلة عبر انتحال هوية مسلم باسم "الشيخ إبراهيم"، وتوثيقه الدقيق لرحلاته من بلاد الشام إلى الحجاز، مرورًا بالسودان ومصر، بهدف التوغل في المجتمعات الإسلامية والإفريقية. كما أبرز البحث الأبعاد الأنثروبولوجية والجغرافية والدينية لرحلته، خاصة زيارته لمكة المكرمة وأدائه لمناسك الحج متقمصًا شخصية مسلم، متجاوزًا حدود الاستكشاف إلى التفاعل السوسيو–ديني العميق مع البيئة التي عاش فيها.

الكلمات المفتاحية: الحج، الاستشراق، جون لويس بوركهارت.

Pilgrimage journeys from Africa to Mecca through the observations of European Orientalists (John Lewis Burkhardt)

Assis.Lec. Hamad Ibrahim Hamid Jassim Al-Jubouri
Ministry of Education Directorate of Education
hemedeljboury123@gmail.com

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الخامس والثلاثون
٢٠٢٦م /١٤٤٧هـ

Abstract:
This study examines the Hajj journey from Africa to Mecca from the perspective of the Swiss Orientalist John Lewis Burckhardt, one of the most prominent European travelers of the early nineteenth century. It highlights the religious, cultural, social, and political dimensions of this journey as documented in his writings. The study begins with a comprehensive definition of Hajj and its importance in Islam, as it is the fifth pillar of the religion and a manifestation of unity and equality among Muslims. It then examines the concept of Orientalism, its multiple definitions, and the diversity of its motivations, ranging from scientific to ideological.
The study focuses on Burckhardt's upbringing and biography, his involvement with the African Society in London, his planning of the journey by assuming the identity of a Muslim named "Sheikh Ibrahim," and his meticulous documentation of his travels from the Levant to the Hijaz, via Sudan and Egypt, with the aim of penetrating Islamic and African societies. The research also highlights the anthropological, geographical, and religious dimensions of his journey, particularly his visit to Mecca and his performance of the Hajj pilgrimage while assuming the role of a Muslim, transcending the boundaries of exploration into a profound socio-religious interaction with the environment in which he lived.
Keywords: Hajj, Orientalism, John Lewis Burckhardt

مقدمة:

شعائر الحج هي أبرز الشعائر الإسلامية التي تجمع بين البعد الديني والروحي والاجتماعي، إذ يمثّل رحلة مقدّسة يتوافد إليها المسلمون من شتى بقاع الأرض، وهو ما جعله موضوعًا بالغ الأهمية في كتابات الرحالة والمستشرقين الأوروبيين، ولاسيما في القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، حين تكثفت رحلات الاستكشاف والبحث في العالمين العربي والإسلامي. وقد شكلت رحلات الحجاج من إفريقيا إلى مكة المكرمة، خصوصًا من مناطق السودان الغربي وسواحل إفريقيا الشرقية، نقطة جذب لأنظار المستشرقين، لما تحمله من مشاهد إنسانية، ومسارات جغرافية، وتقاليد ثقافية، وصور دينية تعكس التداخل بين المجتمعات الإسلامية الإفريقية ومركز العالم الإسلامي .

JOBS مجلة العلوم الأساسية Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الخامس والثلاثون
٢٠٢٦م /١٤٤٧هـ

ومن أبرز من كتب عن هذه الرحلات كان المستشرق السويسري جون لويس بوركهارت (John Lewis Burckhardt)، الذي عُرف باسمه العربي (إبراهيم بن عبد الله) بعد أن تظاهر بالإسلام وتمكن من أداء فريضة الحج في أوائل القرن التاسع عشر، وقد قدّم بوركهارت وصفًا تفصيليًا لرحلات الحج من إفريقيا إلى مكة، من خلال مشاهداته الشخصية، ومقابلاته مع الحجاج، وتوثيقه للطرقات، والأسواق، والعادات، والتقاليد، فضلًا عن الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي أحاطت بهذه الرحلة الدينية.

إن دراسة هذه المشاهدات لا تقدم فقط قراءة وصفية لرحلات الحج الإفريقية، بل تكشف عن تمثلات المستشرق الأوروبي للإسلام والمسلمين، وحدود رؤيته، وخلفياته الفكرية، وطبيعة علاقته بالمجتمعات التي رافقها أو كتب عنها، مما يجعل تحليل نصوصه من منظور علمي وتاريخي ضرورة لفهم صورة الحج الإفريقي في الأدبيات الأوروبية.

❖تعريف عام بالحج وأهميته في الإسلام.

إن مناسك الحج في الإسلام من أعظم الشعائر التي شرعها الله سبحانه وتعالى لعباده، وهو قصد بيت الله الحرام بمكة المكرمة في زمن مخصوص لأداء مناسك معينة، تُعرف بمناسك الحج، ويؤدى مرة واحدة في العمر على سبيل الوجوب لكل مسلم بالغ، عاقل، قادر بدنيًا وماليًا، ويُعد الحج الركن الخامس من أركان الإسلام، كما ورد في الحديث الشريف عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم قال: "بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج وصوم رمضان، (وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلًا") (سورة الحج : الآية ٢٧)

فرض الله تعالى الحج بنص القرآن الكريم، قال تعالى في كتابه العزيز:﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾(سورة الحج : الآية ٢٧).

والحج لغة: يعني القصد والزيارة.

شرعًا: هو قصد بيت الله الحرام بمكة المكرمة لأداء عبادات مخصوصة في أوقات محددة، تشمل الإحرام، الوقوف بعرفة، طواف الكعبة، والسعي بين الصفا والمروة، وغيرها من المناسك.

وحكمه: واجب على كل مسلم بالغ عاقل قادر، وهو فرض عين .

وتكمن أهمية الحج في كونه مظهرًا للوحدة الإسلامية، وتجسيدًا عمليًا للتساوي بين المسلمين من مختلف الأجناس واللغات، فضلًا عن كونه فرصة عظيمة للتقرب إلى الله، وموسمًا للتوبة وتكفير

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الخامس والثلاثون
٢٠٢٦م /١٤٤٧هـ

الذنوب، كما في الحديث: "من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه" (البخاري، حديث رقم ١٥٢١؛ مسلم، حديث رقم ١٣٥٠).

❖**مفهوم الاستشراق**

إن مفهوم الاستشراق الى التوجه المعرفي والثقافي نحو دراسة الشرق من قبل الباحثين الغربيين، ويُفهم من الاستشراق، في معناه العام، ذلك الاتجاه العلمي الذي نشأ في أوروبا لفهم الشرق من جوانبه الحضارية والدينية والثقافية واللغوية، خاصة العالم الإسلامي، من خلال مقاربات معرفية متنوعة وقد أسهم هذا التيار في تشكيل الرؤية الغربية تجاه الشرق، بما فيها من تصورات نمطية أو تحليلات أكاديمية، تعكس أحيانًا الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بين الشرق والغرب. أما من حيث الاشتقاق اللغوي، فإن كلمة "مستشرق" تُشتق من الجذر العربي "شرق"، ويُقصد بها الشخص الذي يتجه نحو دراسة الشرق أو المشرق، وهي كلمة تتجاوز في دلالتها المجردة مصطلحي "شرق" أو "شرقي"، حيث تكتسب الكلمة معنى اصطلاحيًا واسعًا يشير إلى الباحثين الغربيين المهتمين بدراسة حضارات المشرق وثقافاته (الحساني, ٢٠١٨, ٧٣-٩٢).

المستوى الاصطلاحي: ظهرت تعريفات متعددة تعكس اختلاف الخلفيات الأيديولوجية والبحثية للمفكرين الغربيين والشرقيين على حد سواء فمن الباحثين من يرى في الاستشراق ظاهرة معرفية صحية تندرج ضمن إطار الحوار الحضاري، بينما يرى آخرون أن له خلفيات استعمارية، وغايات أيديولوجية غير بريئة، خاصة إذا ارتبطت جهوده بمحاولات اختراق ثقافي أو تشويه ممنهج للإسلام ومجتمعاته. وقد أوردت بعض الأدبيات تعاريف، نذكر منها:

❖التعريف الأول: يرى الاستشراق كتيار عام يشمل كل دراسة غربية للشرق، خاصة الشرق الإسلامي، في لغاته وتاريخه وأديانه وثقافاته. أما في معناه الخاص، فهو يرتبط بالدراسات الغربية التي تتناول الإسلام وعالمه الحضاري من منظور أكاديمي أو أيديولوجي (الزيادي, ١٩٩٨, ١٥).

❖التعريف الثاني: يُعرّف الاستشراق بأنه جهود العلماء الغربيين الذين خصصوا حياتهم لدراسة الإسلام وعلومه من خلال مراكز معرفية غربية، غالبًا ما انطلقت من دوافع أيديولوجية، وبهدف خلق صورة سلبية عن الإسلام، والتشكيك في حضارته وتشريعاته، والسعي لتحفيز مشاريع "إصلاح" مشوهة تمهيدًا للاختراق الثقافي (الندوي, ٢٠٠٢, ١٥).

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الخامس والثلاثون
٢٠٢٦م /١٤٤٧هـ

❖ التعريف الثالث: أن الاستشراق هو "أسلوب في التفكير يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بين الشرق والغرب"، وقد وظف هذا النمط من التفكير من قبل الفلاسفة والشعراء والسياسيين الغربيين كأداة للهيمنة الإمبريالية على الشرق (سعيد, ٢٠٠٦, ٤٥-٤٦).

❖ **جون لويس بوركهارت: نشأته وسيرته**

ولد الرحّالة جون لويس بوركهارت في مدينة لوزان السويسرية عام ١٧٨٤م، وكان من عائلة ألمانية الأصل ، وقد اضطرت أسرته إلى الهجرة إلى إنجلترا نتيجة اتهام والده بالخيانة والتعاون مع النمساويين من قِبل قادة الثورة الفرنسية، وهو الاتهام الذي كاد أن يودي بحياته ورغم تبرئته لاحقًا من قبل القضاء الفرنسي، إلا أن انعدام ثقته في النظام الجمهوري الجديد دفعه إلى الرحيل نهائيًا عن فرنسا.

لقد استقر بوركهارت في إنجلترا عام ١٨٠٦م، حيث التحق بجمعية إفريقية تُعرف بـ "الجمعية الإفريقية" والتي كانت تسعى لاكتشاف منابع نهر النيجر، وقد نال بوركهارت ثقتها وزكّته الجمعية لتنفيذ هذه المهمة، خاصةً بعد أن عانت من فشل بعثاتها السابقة وخسارة معظم الرحّالة الذين أُوفدوا للغرض ذاته، وقد بدأ بوركهارت سلسلة من الرحلات الاستكشافية، حيث عبر صحراء النوبة ووصل إلى منطقة دنقلة في السودان، ثم استقر لفترة في سوريا بغرض دراسة اللغة العربية والتعمق في فهم ثقافة المجتمعات الإسلامية. كما زار مناطق عدة مثل الأردن وشبه الجزيرة العربية، وجمع خلالها ملاحظات دقيقة حول الطبيعة الجغرافية والأنماط الثقافية والاجتماعية للسكان، سواء في الماضي أو الحاضر (عبد الرحمان, د.ت, ٣٨٣).

من أبرز إنجازاته الجغرافية، إعادة اكتشاف مدينة البتراء النبطية في عام ١٨١٢م، حيث كان أول أوروبي يوثق آثارها منذ قرون. وفي عام ١٨١٤م، قام برحلة مهمة إلى مكة المكرمة، متخفيًا بزيّ مسلم تحت اسم "الشيخ إبراهيم"، وأدى فريضة الحج، فكان بذلك من أوائل الرحّالة الغربيين الذين دخلوا مكة وسجّلوا انطباعات تفصيلية عن شعائر الحج والمجتمع الحجازي في ذلك الوقت (Ansorge, 2019, 486-450).

أن بوركهارت يعد من الرواد البارزين في أدب الرحلة، إذ جاءت استكشافاته في فترة كانت فيها أوروبا في أمسّ الحاجة إلى معلومات دقيقة عن القارة الإفريقية، وخاصةً المناطق الداخلية منها التي كانت شبه مجهولة بالنسبة للغرب. ورغم جهوده المكثفة، إلا أنه توفي عام ١٨١٧م في القاهرة قبل

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الخامس والثلاثون
٢٠٢٦م /١٤٤٧هـ

أن يتمكن من تنفيذ رحلته الكبرى لاستكشاف مجرى نهر النيجر من منبعه إلى مصبه، حيث أودى المرض بحياته بينما كان لا يزال في طور الإعداد والتدريب لهذه المهمة (بوركهارت, ١٨٨٧, ٨).

تجدر الإشارة إلى أن الجمعية الإفريقية كانت قد أوفدته إلى بلاد الشام لغرضٍ أساسي هو إتقانه للغة العربية وتقاليد المسلمين، حتى يتسنّى له التنكر في هيئة مسلم خلال رحلاته داخل إفريقيا، انسجامًا مع الهدف الاستراتيجي للجمعية المتمثل في اختراق القارة من الشمال إلى الجنوب، في مقابل الطرق التقليدية من الغرب إلى الشرق.

❖ **مشروع بوركهارت الاستشراقي ورحلته إلى إفريقيا**

قد بدأت مغامرة جون لويس بوركهارت الاستكشافية بشكل رسمي حين انضم إلى الجمعية الملكية الإفريقية في لندن عام ١٨٠٨م، وهي مؤسسة بريطانية علمية كانت ترعى الرحلات الاستكشافية إلى داخل القارة الإفريقية، خاصة إلى حوض نهر النيجر الذي كان مجهول المعالم لدى الأوروبيين آنذاك. قدم بوركهارت مقترحًا للجمعية يتضمن خطته لاستكشاف منابع النهر، فعرضت عليه تمويل الرحلة شريطة أن يحاول الوصول إلى مدينة تمبكتو، وذلك بعد عودته من مكة المكرمة، عبر مرافقة إحدى قوافل الحج وادعاء الإسلام، مقابل منحه جنيهًا إسترلينيًا واحدًا عن كل يوم من الرحلة (إلهام, ٢٠١٧, ١٥٥–١٨٨).

من أجل تسهيل مهمته، تجنس بالجنسية البريطانية في العام نفسه، والتحق بجامعة كامبريدج لدراسة اللغة العربية، إلى جانب علوم الطب والفلك، وتلقى تدريبات بدنية ونفسية استعدادًا للمخاطر المتوقعة في رحلته المرتقبة. ولتعويد جسده على مشاق السفر، كان يسير يوميًا لمسافات طويلة في صيف مقاطعة كامبريدج، مكتفيًا بتناول كميات ضئيلة من الطعام، من الخضروات والخبز، وكان ينام في العراء على ضفاف الأنهار، مهيئًا نفسه لتحمل الجوع والعطش (بوركهارت, ٢٠٠٧, ١).

في مارس ١٨٠٩م، استقل بوركهارت باخرة تجارية متجهة إلى ميناء البحر الأبيض المتوسط، ووصل إلى جزيرة مالطا في منتصف شهر أبريل، ومنها توجه إلى سوريا متخفّيًا بهوية تاجر مسلم هندي يُدعى "إبراهيم بن عبد الله"، زاعمًا أنه يحمل رسائل من شركة الهند الشرقية، التي زعم أيضًا أنه وكيل لها.

وقد استقر بوركهارت في سوريا لمدة عامين ونصف، قضى جزءًا كبيرًا منها في دمشق وتدمر وبيروت وحمص، حيث تعمق في دراسة اللغة العربية والتقاليد الإسلامية، استعدادًا لمهمته في الجزيرة

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الخامس والثلاثون
٢٠٢٦م /١٤٤٧هـ

العربية. وفي عام ١٨١٢م، غادر سوريا بشكل نهائي، متجهًا نحو الحجاز تمهيدًا لأداء الحج، واستكمالًا لخطته في استكشاف المجتمعات الإسلامية من الداخل.

هدفت هذه الخطوة في بداية الرحلة إلى التمكن من اللغة العربية نطقًا وقراءة، وبعضًا من القرآن بالاتصال بالبدو في الشام ومجالستهم والتعوّد على ثقافتهم ونمط عيشهم مستأنسًا بمظهره العربي مقلدًا إياهم في سلوكاتهم وترتيبات عيشهم متوخّيا الحذر من اكتشاف أمره، وقد أوصلته رحلته إلى بلاد الشام إلى شواطئ الفرات لدراسة الإسلام ومبادئه، حتى اعتنقه رسميًا وعُرف بشخصيّة رجل مسلم اسمه "عبد الله الشامي"، ومما يُنسب إليه اكتشاف آثار مدينة البتراء القديمة، ومنها وصل إلى القاهرة في نهاية ١٨١٢م، واتصل بمحمد علي والي مصر لتسهيل سفره مع القوافل المتجهة إلى فزّان بجنوب ليبيا، ومنها باتجاه إلى نهر النيجر لاكتشاف منابعه لمصلحة الجمعية الملكية الإفريقية بلندن، فاستدار هذه الحملة من الشمال إلى الجنوب عكس مجرى النيل على ضفافه من سنة ١٨١٣م إلى ١٨١٤م، ثم انتقل من ميناء سواكن إلى جدة ليصل إلى الحجاز في جوان١٨١٤م (إلهام, ٢٠١٧, ١٥٧) .

وقد أقام جون لويس بوركهارت في شبه الجزيرة العربية، متنقلاً بين مكة المكرمة والمدينة المنورة والطائف، حيث أدى مناسك الحج دون أن يُثير حوله أي شبهات وقد ساعده في ذلك اتقانه للغة العربية ومعرفته بالعادات الإسلامية، إضافة إلى علاقته الجيدة مع محمد علي باشا والي الحجاز آنذاك، والذي أراد التأكد من صدق إسلامه. ولهذا الغرض، أرسل اثنين من كبار علماء الحجاز لاختباره في حفظه للقرآن وفهمه لتعاليم الإسلام، فاقتنعوا بإخلاصه وصدق إيمانه. لكن خلال إقامته في الحجاز، أصيب بوركهارت بحمى شديدة وزُحار نتيجة الظروف المناخية القاسية والمياه غير النقية، مما أدى إلى تدهور صحته وتغير حالته النفسية والجسدية (بوركهارت, ٢٠٠٧, ٢٤-٢٥).

على الرغم من معاناته، بقي في الحجاز حتى شهر أبريل نيسان من عام ١٨١٦م، ثم عاد بعدها إلى القاهرة حيث شرع في التحضير لرحلته الاستكشافية الكبرى إلى نهر النيجر. إلا أن سوء حالته الصحية حال دون إتمام تلك الرحلة كما كان يخطط لها (إلهام, ٢٠١٧, ١٥٨).

وفي ظل هذه الظروف الطارئة، كتب بوركهارت رسالة إلى الدكتور هاملتون، سكرتير الجمعية الملكية الإفريقية، جاء فيها: "لن أقول شيئًا الآن عن رحلتي إلى داخل إفريقيا عبر الصحراء الليبية، إذ لا بد لي من بعض الوقت لاستعادة صحتي والانتهاء من إعداد تقاريري. وأملي أنه، متى أتممت

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الخامس والثلاثون
٢٠٢٦م /١٤٤٧هـ

هذا العمل، لن يقف شيء في طريقي يمنعني من الشروع في رحلتي الأخيرة، التي أشعر اليوم أنني باتت لدي الأهلية الكاملة لإنجازها" (بوركهارت, ٢٠٠٧, ٢٤).

ويبدو أن عودة جون لويس بوركهارت إلى القاهرة كانت بدافع انتظار القوافل التجارية القادمة من فزّان، والتي كان يأمل أن يرافقها في رحلته نحو أعماق إفريقيا وفقاً للخطة المرسومة مسبقاً. إلا أن تعذر تحقيق هذا الهدف دفعه إلى اغتنام الفرصة لاستكشاف مناطق جديدة، حيث بدأ في ٢٠ أبريل(نيسان) ١٨١٦م جولة في خليج العقبة وصحراء سيناء، عاش خلالها بين قبائل البدو، في تجربة ميدانية كانت آخر محطاته الاستكشافية قبل وفاته في القاهرة في العام التالي. وقد عاد إليها على أمل مرافقة القافلة المنشودة، وهو أمل لم يتحقق، وتعبيراً عن شعوره بالإحباط وخيبة الأمل، كتب بوركهارت في إحدى رسائله الموجهة إلى الجمعية الملكية الإفريقية قائلاً: "لقد مضت سنتان وأنا لا أفعل سوى التعليق على رحلاتي السابقة أو الحديث عن رحلاتي المستقبلية... أقدّم وعوداً بدل أن أنفذ أعمالاً... ومع ذلك، لا أزال عاجزاً عن مغادرة مصر، إذ لم تصل بعد أي قافلة من الغرب، وقد حال الانتظار دون قيامي بأي رحلات أخرى. ولو أن هناك طريقاً آخر إلى داخل إفريقيا غير طريق فزّان، لما تأخرت عن سلوكه، لما أشعر به من ألم عند التفكير في أن يُساء فهمي أو يُظن أنني تكاسلت أو أن عزيمتي قد ضعفت. لقد مضت ثمانية أعوام وأنا أبذل جهدي لاكتساب المهارات والمؤهلات التي تؤهلني لتنفيذ مشروعي. فإذا أخفقت، فإن من سيخلفني سيحتاج لسنوات طويلة كي يتدرب ويكتسب الثقة التي أتمتع بها الآن لدخول ليبيا" (بوركهارت, ٢٠٠٧, ٢٥).

وكان استقرار جون لويس بوركهارت في القاهرة خلال أواخر حياته فرصة ثمينة لاستثمار وقته في التدوين والتأليف، حيث انكبّ على تسجيل مشاهداته وتحليلاته الدقيقة للمجتمع المصري، من خلال تقارير مفصلة تعكس فهمه العميق للبنية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية في مصر. وقد شملت ملاحظاته كل ما لفت انتباهه من معالم حضارية مثل الأهرامات والمساجد والقصور، إلى جانب المظاهر المدنية والنسيج العمراني، وأنماط البداوة، والسمات الطبيعية والمناخية، ما شكل لوحة بانورامية متكاملة عن مصر في تلك الحقبة، عبّر عنها بشغف واهتمام بالغ، معتبراً ذلك جزءاً من التهيئة الفكرية والمعرفية لمهمته الاستكشافية الكبرى التي جاء من أجلها. أما رحلته إلى شبه الجزيرة العربية، فقد اتخذت طابعاً مميزاً، إذ لم تقتصر على الاستكشاف الجغرافي والثقافي فحسب، بل تجاوزت ذلك إلى محاولة الاقتراب من العالم الرمزي والمقدس في الإسلام، متمثلاً في مكة والمدينة وشعائر الحج. وقد شكّل هذا الجانب الروحي بُعداً هاماً في تجربته

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الخامس والثلاثون
٢٠٢٦م /١٤٤٧هـ

الشخصية، حيث أدى مناسك الحج متقمصاً شخصية المسلم، ومارس الشعائر الإسلامية على نحو يعكس اندماجه السوسيو–نفسي في الوسط الديني والاجتماعي، في وقت كانت فيه شبه الجزيرة العربية تشهد تحولات سياسية وفكرية عميقة، من أبرزها بروز الدعوة الوهابية وما تبعها من تغيّرات عسكرية وإدارية في المنطقة، وقد حرص بوركهارت على تسجيل ملاحظاته في مختلف المواقع التي زارها، سواء في الحواضر مثل مكة والمدينة والطائف وجدة، أو في البوادي الممتدة في نجد وتخوم الحجاز، مما مكنه من تكوين صورة شاملة عن بنية المجتمع القبلي وعلاقته بالسلطة الناشئة آنذاك ونقل بدقة خصائص المجتمع الحجازي، متتبعاً بوادر تشكل كيان سياسي جديد في المنطقة .

وفاة جون لويس بوركهارت

وقد توفي المستشرق والرحالة السويسري جون لويس بوركهارت في الخامس عشر من أكتوبر عام ١٨١٧م في مدينة القاهرة، بعد أن عاودته نوبات الزحار والحمى التي أنهكت صحته، وقد تم دفنه هناك وفقًا لوصيته، وبحسب الطقوس الإسلامية التي اختارها لنفسه وقد نُقش على قبره: "هنا يرقد الرحالة السويسري الشيخ إبراهيم المهدي، وُلد عام ١١٩٩هـ وتوفي عام ١٢٣٣هـ"، بينما نُقش اسمه وتواريخه الميلادية الأصلية بالإنجليزية (يزير, ٢٠٢١, ٣٨٧).

وعلى رغم أن بوركهارت وافته المنية قبل أن يحقق مشروعه الاستكشافي الرئيسي في عمق القارة الإفريقية، والذي جاء بتوصية رسمية من الدوائر الحكومية البريطانية، إلا أن الإرث العلمي الذي تركه خلفه ظلّ مساهمة ثمينة في دراسة المجتمعات الإسلامية والعربية. فقد تمكّن، من خلال ملاحظاته الدقيقة وتقاريره التفصيلية، من تقديم صورة متكاملة عن الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية والثقافية في بلاد الشام ومصر والحجاز وبلاد النوبة، وهو ما جعل كتاباته تُعدّ من أهم المراجع العلمية في مجالات الأنثروبولوجيا، والسوسيولوجيا، والتاريخ، والدراسات الحضارية. لقد تميز بوركهارت بنظرته "من الخارج"؛ فكونه لم يكن منتميًا للحضارة الإسلامية من الناحية الثقافية أو الدينية عند بدء رحلاته، منحه قدرة تحليلية فريدة مكنته من رصد الظواهر الاجتماعية والتقاليد والعادات بمنهج علمي محايد إلى حد كبير، خالٍ من الانحيازات العاطفية أو الأيديولوجية. وهذا ما جعله مؤرخًا أنثروبولوجيًا ذا طابع خاص، رحّالة استطاع بفضل معايشته للمجتمعات الإسلامية، لا سيما في بيئاتها البدوية والمدينية، أن يسجل يوميات وتفاصيل لم تكن متاحة لمعظم مؤرخي العرب والمسلمين في تلك الفترة، نظراً لقيود المكان والانتماء، ولأنها جاءت من "الآخر" الذي تماهى مع البيئة دون أن يفقد المسافة العلمية التي تضمن له دقة الرصد وموضوعية التحليل.

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الخامس والثلاثون
٢٠٢٦م /١٤٤٧هـ

الخاتمة

وفي ختام هذا البحث، يمكن القول إن تجربة جون لويس بوركهارت كانت أكثر من مجرد مغامرة استكشافية لقد كانت مشروعًا علميًا مركبًا، جمع بين الرصد الجغرافي والملاحظة الاجتماعية والمشاركة الرمزية في الشعائر الإسلامية، وعلى رأسها الحج. فقد وفرت له هذه الرحلة فهمًا عميقًا للمجتمع الإسلامي من الداخل، وخصوصًا في الحجاز، حيث تمكّن من تقمص الهوية الدينية والثقافية للمسلمين، دون أن يتخلى عن أدواته التحليلية كرحالة ومستشرق.

تُبرز مذكرات بوركهارت، وتحديدًا في ما يتعلق برحلة الحج، أهمية الحج ليس فقط بوصفه فريضة دينية، بل كظاهرة اجتماعية وثقافية تشكل نقطة التقاء بين الشعوب الإسلامية المختلفة. كما أظهرت كيف أن قوافل الحجاج كانت همزة وصل حضارية بين إفريقيا ومكة، ما أضفى على هذا الحدث السنوي طابعًا دوليًا، ووحدة دينية تتجاوز الحدود الجغرافية والسياسية.

كما يُبرز هذا البحث إشكالية الاستشراق بين المعرفة والأيديولوجيا، حيث يتضح أن بوركهارت – رغم خلفيته الغربية – حاول تقديم وصف موضوعي، وإن لم يخلُ من الانبهار أحيانًا أو الغرابة أحيانًا أخرى لقد أسهمت كتاباته في إثراء المكتبة الأوروبية بمعلومات دقيقة عن الإسلام والحج والمجتمعات الإفريقية والعربية، مما جعله شاهدًا نادرًا من "الداخل" على تحول حضاري وديني مهم في منطقة كانت آنذاك مغلقة أمام معظم الأجانب.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

أولاً : المصادر العربية

١. البخاري، حديث رقم ٨؛ ومسلم، حديث رقم ١٦.

٢. البخاري، حديث رقم ١٥٢١؛ مسلم، حديث رقم ١٣٥٠.

٣. ساجدة الحساني، أبعاد ومحددات الرؤية الاستشراقية في دراسة التراث والتاريخ الإسلامي. مجلة دراسات استشراقية، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، لبنان، العدد ١٥، ٢٠١٨، ص ٧٣–٩٢.

٤. محمد فتح الله الزيادي، الاستشراق: أهدافه ووسائله – دراسة تطبيقية حول منهج الغربيين في دراسة ابن خلدون. ط١، دمشق: دار قتيبة للنشر والتوزيع، ١٩٩٨، ص ١٥.

٥. أبي الحسن علي الندوي، مقالات وبحوث حول الاستشراق والمستشرقين. جمع وإعداد: عبد الماجد سيد عمر، دار ابن كثير، ٢٠٠٢، ص ١٥.

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الخامس والثلاثون
٢٠٢٦م /١٤٤٧هـ

٦. إدوارد سعيد، الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق. ترجمة: محمد عناني، ط١، القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦، ص ٤٥-٤٦.

٧. نواصر عبد الرحمان، دور رحلات "جون لويس بوركهارت(١٧٨٤- ١٨١٨)، في الكتابات التاريخية، مخبر الدراسات التاريخية المتوسطية عبر العصور، ص٣٨٣.

٨. Catherine Ansorge ;Study and Travel ; John Lewis Burkhardt's Rermarkable Journey Traced Through Archives and Manuscripts in Cambridge University Library, ٢٠١٩, p ٤٥٠-٤٨٦.

٩. جون لويس بوركهارت: رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان، ترجمة فؤاد أندراوسن، المجلس الأعلى لثقافة، القاهرة، سنة ١٨٨٧ ، ص ٨

١٠. إلهام محمود كاظم ، وصف الرَّحَّالة المستشرق جوهان لودفيج بوركهارت لقبور البقيع، بيروت، مجلّة دراسات استشراقية، العدد ١٢ ، المركز الإسلامي للدِّراسات الإستراتيجية، ٢٠١٧، ص ص ١٥٥ – ١٨٨ ، ص ١٥٦

١١. جون لويس بوركهارت، رحلات بوركهارت في بلاد النُّوبة والسُّودان، د.ط، القاهرة، تر: أندراوس فؤاد، الهيئة العامَّة لشؤون المطابع الأميرية،٢٠٠٧، ص ١

١٢. جمال يزير، الحركة الوهَّابيَّة في تمثُّلات الرِّحلة الاستشراقيَّة بناء الصُّورة كتابات "جون لويس بوركهارت" أنموذجا ، المجلة التاريخية الجزائرية، المركز الجامعي بآفلو، الجزائر، ٢٠٢١، ص ٣٨٧.

Sources and References:

The Holy Quran

First: Arabic Sources

1. Al-Bukhari, Hadith No. 8; and Muslim, Hadith No. 16.

2. Al-Bukhari, Hadith No. 1521; Muslim, Hadith No. 1350.

3. Sajida Al-Hassani, Dimensions and Determinants of the Orientalist Perspective in the Study of Islamic Heritage and History. Journal of Oriental Studies, Islamic Center for Strategic Studies, Lebanon, Issue 15, 2018, pp. 73–92.

4. Muhammad Fathallah Al-Ziyadi, Orientalism: Its Objectives and Methods – An Applied Study on the Methodology of Westerners in Studying Ibn Khaldun. 1st ed., Damascus: Dar Qutaiba for Publishing and Distribution, 1998, p. 15.

5. Abu Al-Hasan Ali Al-Nadawi, Articles and Research on Orientalism and Orientalists. Compiled and prepared by: Abdul-Majid Sayed Omar, Dar Ibn Kathir, 2002, p. 15.

6. Edward Said, Orientalism: Western Conceptions of the Orient. Translated by: Muhammad Anani, 1st edition, Cairo: Ru'ya Publishing and Distribution, 2006, pp. 45–46.

7. Nawasir Abd al-Rahman, The Role of John Lewis Burckhardt's (1784-1818) Travelogues in Historical Writings, Laboratory of Mediterranean Historical Studies Through the Ages, p. 383.

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
Print -ISSN 2306-5249
Online-ISSN 2791-3279
العدد الخامس والثلاثون
٢٠٢٦م /١٤٤٧هـ

8.Catherine Ansorge, Study and Travel, John Lewis Burckhardt's Remarkable Journey Traced Through Archives and Manuscripts in Cambridge University Library, 2019, pp. 450-486.
9. John Lewis Burckhardt, Burckhardt's Travels in Nubia and Sudan, translated by Fouad Andrawes, Supreme Council of Culture, Cairo, 1887, p. 8.
10. Ilham Mahmoud Kazem, The Orientalist Traveler Johann Ludwig Burckhardt's Description of the Graves of al-Baqi', Beirut, Journal of Oriental Studies, Issue 12, Islamic Center for Strategic Studies, 2017, pp. 155-188. 156
11. John Lewis Burckhardt, Burckhardt's Travels in Nubia and Sudan, n.d., Cairo, trans. Andrawes Fouad, General Authority for Amiri Printing Affairs, 2007, p. 1
12. Jamal Yazir, The Wahhabi Movement in the Representations of Orientalist Travelogues: Image Construction, the Writings of John Lewis Burckhardt as a Model, Algerian Historical Journal, University Center of Aflou, Algeria, 2021, p. 387.

مجلة العلوم الاساسية
للعلوم التربوية والنفسية وطرائق التدريس للعلوم الاساسية